الله تتمة الكلام في الاقطاعات عند ذكرنا للدول وما كان في ايام ناصر الدين الحسين ابن خضر من الحوادث . وقد رأيت بخط بعض السلف انهُ عقيب فتوح بيروت في ولاية شهاب الدين بن برق (١ حضر الى بيروت ستّ شواني وواقعوا المسلمين وقعةً لم يعهدوا مثلها . وذكروا انَّ صاحب بيروت كان في الشواني المذكورة (ستأتي البقية)

رواية الشقيقتين

للاب هنري لامنس اليسوعي

(تابع لما قبل)

ما فاضت نفسُ الراهبة التقيّة حتّى سُمعت ساعة برج القديس اسطفانوس تدقُّ نصف الليل . وانفتحت وقتئذٍ ابواب ملاعب العاصمة النمسوية فانبعثت منها الانوار والاصوات الموسيقية . وكان النمسويون يخرجون منها زرافاتٍ . حتى امتلأت الشوارع بشرًا منهم يركبون العربات الناهبة بهم الارض نهبًا فيسمع لها اعظم دويّ ومنهم يسيرون مشاةً فرقًا فرقًا يتحدّثون بتلك اللهجة الحسنة التي عُرف بها سكّان ڤينة . على انهُ لم يمضِ المديد من الزمن حتى عاد السكوت والسكون الى تلك الشوارع التي اصبحت كالقفر خلوة من بني آدم

بيد ان الجرس الذي في قبّة دير « الراهبات الممرّضات » كان اذ ذاك يرنُّ رنّة الحزن وكان صوت الجرس الشبيه بانين الباكي او تأوُّف الشاكي يطنُّ للهارّة القليلين المتأخرين في الاياب الى منازلهم ان نفسًا من النفوس اجتازت من هذه الدنيا الى ما وراء ابواب الابدية

١٤

وكانت الحيوة قد اصبحت علقمًا مرًّا على المسيو ب . وزوجته بعد ان رحلت عنهما الراهبة اغنس رسما بانحراف مزاجها . اجل ان وجود تلك الراهبة عندهما كان من شأنهِ ان

(١ يظهر من قرينة الكلام انَّ شهاب الدين بن برد كان والياً على بيروت من قبل ملوك مصر الشراكسة في ايام الاشرف خليل بن قلاوون

يشيء من وقتٍ الى آخر اشعّة من شمس الرجاء في قلب تلك الاسرة التي جار عليها الزمان واتخذتها المصائب مقعدًا ومركبًا بل كانوا يحسبونها لهم روحًا مُحييًا بل كانوا اذا ما رأوها في البيت تخطر ذهابًا وايابًا حسبوها من جملة اللائكة الحكيّ عنها في اساطير الاقدمين انها تأتي لتهزّ مهد الطفل النائم وتحرسهُ

وكان اهل البيت طلبوا مرارًا بالحاح الى تلك الراهبة الفاضلة ان تخفّف العناء والتعب عن نفسها لئلاّ تقصر ايامها قبل الاوان. امّا هي فكانت تجاوبهم قائلة والابتسام يبدو على ثغرها بلطف عجيب: ان الحياة ليست بالامر المهمّ لدينا فان الواجب المفروض علينا نحن انما هو ان نُخلص الخدمة بنزاهة ونشاط بل ان نموت في سبيل خدمة القريب ان لزم الامر. ولهذا فاني ان متُّ انا فان واحدةً من رفيقاتي الراهبات تقوم مقامي في الخدمة. امّا هو (وقد اشارت بقولها الى البارون) فمن الواجب ان يحيا بل وقد تحدّثني نفسي انهُ سيحيا بل سيشفى تمامًا

وكانت قائمة على ذلك المريض في مرضه تخدمهُ باخلاص ونزاهة وترقب حركاته وسكناته اناء الليل واطراف النهار وباثناء ذلك لحظت ان ذلك العليل الناقد الصواب كان يتخلّل هذيانهُ فترات يبدو فيها على احسن حال التعقّل والرشد وذلك ما كان يدلُّها على انهُ سائر في طريق الشفاء

وكانت في بعض الليالي عندما يستولي عليها العناء من كثرة السهر تنطبق جفونها من شدّة النعاس ومن الحمّى التي كانت اخذت في ان تضنيها وتتأكل لحمانها رويدًا رويدًا على انّها ما كانت تلبث ان تستيقظ منذعرةً لظنّها انها اهملت الواجب المفروض عليها. واذ لم تكن تسمع اذ ذاك تنفُّس البارون كانت ترتعد فرائصها ولكنها عند ما تنظر انهُ يتنفّس كان يسكن جأشها ويعود اليها الاطمئنان. وكثيرًا ما كان يحدث ان البارون بعد عود التنفس اليهِ كان ينام هادئًا بضعة دقائق يعقبها نوب جديدة هائلة

وكان البارون يكثر من الهذيان نهارًا على ان هذيانهُ كان يخفّ ليلاً عند وجود الراهبة لغنس لديهِ. وكان في بعض الاحيان يبسط ذراعيهِ الى الامام كمن يرى شبحًا محبوبًا لا ينظرهُ سواهُ واذ ذاك كانت شقيقتاهُ الرقيقتان تتلفّظان منادية «يا وردة!»

وقد دامت هذه الحال اسابيع كثيرةً بدون ان تنقيل الراهبة انغنس التعس شيء من الراحة حتى كادت سحنتها تتلف لكثرة ما مرّت حبّاتها بين اصابعها النحيفة. — ولما رآها

يوماً الدكتور ڤون . . . على هذه الحالة (وهو طبيب شيخ من اساتذة مكتب ڤينة الطبي) قال لها وقد هزّ اصبعهُ توعُّداً: « احذري لنفسك ايتها الاخت والّا شكوتُ الامر لحضرة رئيستك لانك بخدمتك وعنائك تسيرين على حافة الهاوية فتقعين وتموتين »

امّا هي فاجابتهُ وكانت لهجتها تُشير الى التوسُّل والاستعطاف والاسترحام: اسألكَ يا سيدي ان لا تفعل هذا اصبر عليَّ بضعة ايّام لان لي تمام الثقة انَّ البارون سيشفى . . . اجلّ من الواجب ان يشفى

وكانت هذه الكلمات التي لفظتها الراهبة بتأكيد ووثوق لم يكونا معهودين بها قد حرّكت المسيو ب . تحريكاً عظيماً . . . على انهُ لم تمضِ بضعة ايام حتى مرضت الراهبة المسكينة مرضاً عضالاً كما سبق فرقدت على السرير تتقلّب على قتاد الاوجاع وكان ذلك مرضها الاخير اذ انها رقدت ولم تقم . — وعندما اخبرتها الرئيسة المرّة الاولى بالخطر المحدق بها وباهمية مرضها استقبلت الراهبة الرئيسة هذا الخبر بفرح وتهلّل وعانقت الرئيسة هاتفةً : لشكر لك يا ربّاه اني اضرعُ اليك ان تستدعيني من هذه الحياة لانَّ بموتي خلاص البارون

١٥

وبأثناء ذلك ازداد مرض شرل كأنَّ تلك الدلّة قصدت ان تكذّب رأي تلك الفتاة القديسة تكذيباً موقّتاً فتكاثرت النُّوب عليه واصبحت تعاقبها المرّة اثر المرّة سريعاً وخُشي عليه من الموت العاجل اذ انهُ غاب عن الرشد تماماً حتى انهُ لم يكن ليعرف احداً واصبح حضور سوسنة لديه من ابغض ما يكون عليه . ولهذا فان تلك الفتاة المسكينة اي سوسنة كانت تقضي نهارها باكيةً منتحبةً تاسيةً الى نفسها موت شقيقتها والبارون معاً

وبأثناء ذلك اخبروا المدام ب . برقاة الراهبة اغنس وسلّموها بالرقّ ذاتهِ دستجة تتضمّن تذكاراً من القديسة فاقبلتها تلك الوالدة المسكينة كذخيرة مقدّسة . ولكن ما فتحتها حتى صرخت صرخة عظيمة ووقعت مغشيًّا عليها بين ذراعي سوسنة

امّا الدستجة فكان في ضمّها جملة صوَر فوتغرافية وصليب صغير من ذهب وسواران وسم عليهما حرفان مشتبكان وهما « و » و « ل » (وردة دي ليفس) وهما السواران اللذان اهداهما البارون الى خطيبته واللذان لبستهما وردة في سهرة الخطبة وكان مع الدستجة مكتوب هذه صورتهُ :

اي والدتي الحبيبة

« عندما ستقرأين هذه السطور تكون ابنتك ماتت . — كنت اودّ ان اعانقك واعانق والدي وسوسنة ولكني اردتُ ان ابعد عنكم جميعاً مقابلةَ الحزن هذه بل اردتُ ايضاً ان أُضيف هذه التضحية الى تضحية حياتي . اني قدّمتُ لله هاتين التضحيتين من اجل شفاء شرل واني على ثقة بان الله قبل ضحيّتي فما احلى هذه الثقة لديَّ . . . انني اموت راضية فرحة مسرورة . . . لأن الواجب المفروض عليَّ في هذه الدنيا قد كمل وتمّ واني لانتظرنكم في السماء حيث يكون اجتماعنا دائماً ابدياً

« يجب على سوسنة ان تقترن بشرل ذلك اشتهاء شقيقتها المائتة بل ذلك امرها الواجب اتباعهُ . . . .

« كفكفوا دموعكم يا اقاربي الاحياء . . . انني واثقة بان الدموع التي تذرفونها الآن انما هي آخر بكاء تبكونهُ . . . لم يكن ليخطر لي مطلقاً ان في التضحية وفي الموت حلاوةً مثل التي اشعر بها الآن . . .

« اغفروا لي وسامحوا ما سببتهُ لكم من العناء . . ولمّا كانت الحال تقضي بان اموت انا او ان تموت شقيقتي افتكرتُ انهُ لم يبقَ مجال للتردّد فجعلتُ نفسي فدًى عن تلك التي أحبها اكثر من حياتي . . . انكم بموتي تفقدون ابنةً ولكن الابنة الباقية لكم هي خير مني . . . الوداع يا والدي الوداع يا والدتي ويا شقيقتي الحبيبة . . . بل اردعكم على امل اللقاء وردة ب . . . »

اما البارون فانهُ عندما نظر حليَّ خطيبته الكريمة ظهر عليهِ كانهُ خرج من سُبات عميق وتنفّس الصعداء متعاقباً وآب اليهِ رشدهُ ثمَّ اخذ تلك الآثار العزيزة لديهِ وقبّلها بتأثر وهيام وكانت الدموع تنهمل من عينيهِ كالغيث المدرار . . . اجل ان التقدمة التي قدّمتها وردة قد قُبلت لدى الله وبناء على ذلك قد نال خطيبها الشفاء من الدّاء

١٦

اليوم الذي نروي حوادثهُ الآن انما هو يوم احد الشمانين . اكرم بهِ يوماً صفا هناؤهُ وتوفّرت بهجتهُ وكان اهالي ڤينة قد ارتدوا بملابس العيد وذهبوا الى الكنائس والمعابد يقضون فروضهم الدينية وكنتَ تراهم بعد انقضاء صلواتهم يخرجون من الكنائس زرافاتٍ يحمل كلٌّ منهم في يدهِ غصناً من البقس وكان يمتزج بالهواء عرفُ البخور الطيب وكانت اجراس

الكنائس تصدح كالبلبل الصيّاح وتشدو كالمزمار في جميع ارجاء تلك العاصمة الفيحاء. وكان الهواء نقيًّا والجوّ صافيًا والسماء رافلة بحلّة زرقاء بهيّة ترتاح اليها الابصار. وكانت شمس نيسان البهية قد بدّدت منذ زمان مديد الضباب اللطيف المتصعّد من وادي الدانوب. وكانت الاشجار المنتصبة صفوفًا منظّمة في رياض ثيتة ومُنتزهاتها قد ظهرت عليها البراعم زاهرةً والاوراق مخضرّةً وكانت الطيور تأتي على اغصانها مغرّدةً صادحةً بنغماتها الطيّبة المطربة كأنّها بذلك تحيّي الربيع المقبل وتستقبل الطبيعة المنتعشة

في تلك الضحى وعلى تلك الحال التي وصفنا كانت جثّة الراهبة اغنس راقدةً في ردهةٍ من دير «راهبات المرضى» في ظلّ صليبٍ مرتكزٍ لدى رأسها... وكانت تلك الفتاة الفقيدة كأنّها نائمةٌ بهدوء النوم الاخير. وكأنّ الموت ذاتهُ قد وقّر واستهاب فريستهُ الكريمة اذ توقّف عن اتلاف تلك الجثّة الطاهرة فلم يعترها فساد. بل كانت وهي جثة مبتسمة ذلك الابتسام العطوف اللطيف الذي كان اثناء حياتها يبدو دائمًا على شفتيها

وكانت الردهة التي فيها جسد الفقيدة مظلمة بعض الشيء لما على نوافذها من السجوف المسدولة وكان حول الجنازة صفّ من الشموع تحدثُ انوارها مشهدًا مهيبًا ينشئ في النفس حالات لا يستطاع التعبير عنها. وكانت الراهبات رفيقات الفقيدة متقبّبات بثقبهنّ البيضاء يتناوبن الركوع حول مرقدها ويسكبن من عيونهنّ الدموع ومن انواههنّ الصلوات

وقد اقبل ايضًا على الردهة التي كان فيها جسدُ الفقيدة عددٌ كبيرٌ من الغرباء تباعًا مدفوعين الى الامر بتلك الجاذبية غير المعروفة التي بها تجتذبُ القداسةُ النفوسَ وتستهوي الالباب

ثم انفتح باب الغرفة ودخل منهُ اربعة اشخاص بملابس السواد ورشاحات الحداد الكامل وهم رجلٌ وامرأة عليهما سيماء الوقار ثم صبيّة يستند الى ساعدها شابٌّ عليهِ آثار المرض وكنتَ اذا امعنت النظر الى ما كان عليهِ ذاك الشاب من الهزال واصفرار اللون صعب عليك ان تعرف انهُ البارون دي لينس خطيب وردة الذي كان ممتلئًا صحّةً وقوّةً ونشاطًا والذي كانت عناصر الحياة والبهجة تبدو على حركاتهِ وسكناتهِ. فتقدّم الاربعة الى مرقد الفقيدة وركعوا حولهُ واستمرّوا مدّة راكعين خاشعين متأملين يصلّون ويبكون سرًّا... اجل انّهم كانوا يجدون لدموعهم رغمًا عن مرارتها مجرًى عذبًا وشهيًّا لنسيم قلوبهم

يبكائهم على الابنة المحبوبة والشقيقة العزيزة والخطيبة المأسوف عليها كانوا يعتقدون انها في السماء بين مصاف القديسات ويلتمسون صلواتها وهي القديسة شهيدة الاخلاص . — اما الراهبات فانهن خرجن من الغرفة اجلالاً لزائرين المتقدم ذكرهم وتلطفاً بهم في حال حزنهم

وكان البارون لا يستطيع ان يحول نظره عن جثة الفقيدة التي كان يظهر وجهها متنيّر الهيئة كأنه قد اشرقت عليه شعاع من المجد السماوي الذي اصبحت نفسها تتمتع به منذ الآن فصاعداً . ثم هتف شرل دي ليس : « ايتها الخطيبة الكريمة القديسة انني لم اكن اهلاً للاقتران بكِ مع اني قضيتُ ثلاثين سنةً بالكدّ والعمل لكي استحق امتلاك مثل هذا الكنز الثمين . ان الله قد سمح ان ألحظ فضائلك برهةً . . . فليكن اسمهُ مباركاً . . . على انني الحني خاضعاً لاوامره واحكامه التي لا يدرك اسرارها بشر »

وربّما كان البارون استطرق الى المزيد في تبيان حزنه واظهار تلهفه بيد ان المسيو ب . نهض بمظهر المهابة وبساطة ابوية قبض على يد سوسنة وجعلها في يد شرل قائلاً : « ليحبَّ كلٌّ منكما الآخر يا ولديَّ وابقيا متحدين زمناً مديداً تلك امنية فقيدتنا العزيزة وهي من اعالي السماء تباركهما كما اني اباركهما انا ايضاً »

وبينما كان المسيو ب . يتفوه بهذه الكلمات خنقتهُ التأثرات فانقطع عن الكلام ثم نهض جميعهم ولثموا يد وردة وعانقوا ذلك المصلوب الذي كان فوق رأسها ومنهُ التمست الفقيدة المحبوبة الشجاعة بالنظر اليه أثناء النزاع الذي انتهى بتضحية حياتها

ثم ان هذه الاسرة التي اشتدت عليها التجارب والامتحانات نظر كلٌّ من اعضائها الآخر بمحبة وبمظاهر الشعور بالسعادة ثم تعانقوا على التعاقب وكانت هذه المرة الاولى التي شعروا بها بالانبساط منذ سنتين . وكانت الدموع التي سكبوها عندئذٍ آخر دموع ذرفتها عيونهم في حيوتهم حسبما تنبأت وردة قبلاً

***

هذا ولم تطل المدة حتى برح الفصل العام وذووهُ مدينة ڤينة عائدين الى سورية . ولم يأتِ اول الصيف حتى اقترن شرل دي ليس بسوسنة

وما زالت هذه الاسرة السعيدة عائشة الآن بالرغد والصفاء في منزلها القديم

تقضي عيش السلام والطمأنينة وتحفظ على صفحات الصدور ذكر الراهبة اغنس مع حاسّات الشكر وعواطف المحبة والتكريم

اما غرفة التذكارات فما برحت في الدار على حالها قد جُعل شرل ناظرًا عليها يدبّر شؤونها. وقد اضافوا الى ما كان شرل قد جمعهُ فيهـا جميع الآثار التي كانت سبباً لتعزية وردة في حال ترعبها واحتضارها. وكانت الاسرة كلّ سنة تأتي « يوم احد الشعانين » تلك الغرفة المتبرة عندهم كمتحف بل كمقدس للتقاوة والتُّقى وكانوا اذ ذاك يركعون امام المصلوب ويتذكّرون جميع الحوادث الماضية بالنظر الى الآثار الموجودة لديهم. وكانوا ينظرون خصوصاً الى ذلك المصلوب الذي اودعتهُ وردة تُبلتها الاخيرة وكانوا يلتمسون دائماً حماية مَن كانت بحياتها كما انها بقيت بعد مماتها ملاكاً قائماً على حراسة تلك الاسرة الفاضلة

وبعد مُضي سنة على الحوادث التي مرَّ بك ذكرها كنت ترى سوسنة تضمُّ الى صدرها وبين ذراعيها بحنو وانعطاف بنتاً رزقها الله اياها وكان اهلها عندما نصّروها سمّوها « اغنس دى لينس » ليعيش بينهم اسم خالتها عنوان الشجاعة والشهامة ولئن كان ذكرها منطبعاً على صفحات الصدور لا يمحوهُ الدهر ولو مرّ. ولا الزمان ولو كرّ (انتهت)

شذرات

فوائد زراعيّة

١ عناقيد عنب ملوّنة

انَّ احبَّ الكرّام ان يحصل على كرمةٍ ذات عناقيد ملوّنة فليعمد الى قضيبين من قضبان الكرم يأتي احدهما بعنب ابيض والآخر باسود وليسحق رأسهما ويعصبهما عصباً لطيفاً ويغرسهما في الارض. فاذا نبتا اتت الكرمة بصنفين من العنب ابيض واسود. وربَّما كان في العنقود الواحد حبوب ملوّنة سود فبيض. وهذا من غرائب الامور الظاهرة بالاختبار

٢ الزراعة في الصخور

انهُ لامر سهل ان تُزرع اشجارُ التُّفاح والجوز بين الصخور. وهاك الطريقة للحصول على ذلك. يجب اوّلاً ان يُعيَّن محلّ كلّ شجرة فتُحفر في الصخرة حفرةٌ عمقها نحو متر فتُحشى بالبارود في اوّل الشتاء وتُفجر كما يُفعل بالألغام. ثمَّ تُنحّى قِطَع الحجارة الكبيرة. اما